

بلاد سورِيَّة في القرن الثاني عشر

وفقاً لرواية ابن جبير

١

تعريف رحلة ابن جبير

في السنة الهجرية ٥٧٨ الموافقة لسنة الميلاد ١١٨٤ اعني سنتين قبل فتح السلطان صلاح الدين للقدس الشريف حضر من الاندلس رحالة مسلم ليزور بلاد الشام . وكان السائح الموماً اليه يُدعى بابي الحسين محمّد بن احمد بن جبير الكناني (١). كان تقلّد في بلاد المغرب والاندلس المناصب الشريفة وتقلّب في الاعمال المنيفة . فلما عاد الى وطنه دوّن اخبار سفره الى الشرق (٢) . وهذه خلاصة رحلته : ركب ابن جبير البحر في سبّعة مقلعاً الى الاسكندرية على مركب للجنويين فرأى على جزيرة سرديانية فصقليّة فجزيرة اقريطش وبلغ الاسكندرية بعد ٣٠ يوماً ثم طاف الصعيد ومال الى عيذاب فقطع بحر القلزم الى جدّة وسار منها الى مكّة فاتمّ فريضة الحج ثم زار المدينة ورحل منها الى العراق براً فوصل الى الكوفة ومنها الى بغداد . ثم كّرّ راجعاً الى المغرب فرأى بالموصل وبلاد الجزيرة الى ان بلغ منبج فدخل سورية وزار أولاً حلب ثم وادي العاصي ثم دمشق وصور وعكّة ومنها البحر الى الاندلس على احدى المراكب الجنوبية

(١) من احبّ مطالعة ترجمة ابن جبير بالتفصيل عليه بمقدّمة العلامة رّيت (W. Wright) الذي تولّى طبع اسفاره ومقدّمة المستشرق الفاضل دي غوي الذي جدّد آخراً طبع هذه الرحلة والى اعداد صفحاتها نشير . وليراجع خصوصاً ما كتبه عنه العلامة سكيابارلي (C. Schiaparelli) الذي نقل رحلته الى الإيطالية وسنمود الى ذكر ترجمته . واطلب ايضاً ما كتبه المقرئ عنه في نفح الطيب

(٢) ثم عاد ابن جبير الى انحاء الشرق فزارها ثلاثاً لكنّه لم يرو في كتابه غير اخبار رحلته

ولا نتعقب آثار المؤلف في كل رحلته بل نكتفي بما كتبه عن سورية التي عليها مدار كلامنا . ووصفه لها يشغل في الكتاب نحو ٧٠ صفحة ونحن نقصر درسنا على هذا القسم فقط فنبين خواصه وفرائده . وقد صرفنا اليه نظرنا بعد المقدسي لأن بين الكاتبين بونا عظيماً في كلامهما عن سورية لا يكاد يجمعهما غير وحدة الموضوع . وكان الاول كما سبق القول وطنياً وكان ابن جبير اجنبياً غريباً . كتب المقدسي بصفة جغرافي مدقق أما ابن جبير فانه يكتب كتابة الرحالة الذين يدون كل يوم ملحوظاته في محفظته كما أثرت فيه وعملت في قلبه . وقد اختلف ايضاً الكاتبان في اسلوبهما وغايتهما ولذلك تجد تعريفهما لبلاد الشام متبايناً وبينهما نحو القرنين . فان المقدسي يقصد قبل كل من كتابته الافادة والتعليم . أما ابن جبير فانه يتوخى من كتابته بهجة القراء وترويح الباهم . وكذلك تجد الاول كثير التدقيق محباً للضبط والايجاز . على خلاف الثاني الذي يطلق العنان الى قلمه فلا يحصر نفسه في قالب او يقضي عليها بخطة معلومة فتراه يمزج تفاصيل رحلته بما يعاينه ويسمعه وربما ادمج وصفه بالاخبار والماجريات التي جرت ابان رحلته او نقلها عن الرواة . كما فعل بذكر صلاح الدين (ص ٣٠٠ - ٣٠١) . فانه يروي عنه اموراً باغته عن ذلك الملك العظيم الذي كان يحاصر حينئذ حصن الاكراد وكلا الكاتبين يدعي مع ذلك انه لا يروي غير ما شهد به بالعيان . على ان المقدسي يشمل في وصفه كل انحاء سورية بينما يقتصر ابن جبير على ذكر الامكنة التي احتلها في سفرته وان كانت تلك الامكنة ليست قليلة لأن الرحالة تفقد معظم مدن سورية الشهيرة في زمانه اللهم الا جهات فلسطين وربما زاد في اوصافه لمدن الشام اموراً وفوائد جغرافية فأت المقدسي او ضرب عنها صفحاً

ومما نهنأ اليه الحواطر في كتاب المقدسي فانتقدناه عليه استعماله احياناً للسجع في اوصافه . لكن المقدسي في ذلك لا يتجاوز حدود كتبه زمانه ولا يبالغ كثيراً . اما ابن جبير فان السجع يغلب على انشائه فيواصله في صفحات متتالية . ومن المعلوم ان السجع يؤدي بصاحبه الى حشو الكلام والى استعمال الغريب والى التصنع فيتعبد الكاتب عن طرائق الكتابة الساذجة المألوفة ويبدلها بالمعاني المستغلفة والتعابير المستهمة وكان السجع قليلاً في عهد الجاهلية وفي قرون الاسلام الاولى ثم تكاثر بانحطاط فنون الكتابة . وما نقوله بالاجمال يصح في سجع ابن جبير ألا ترى مثلاً كيف وصف مدينة

حلب بما يشتف اذن السامع دون ان يجديه نفعاً كبيراً في معرفتها قال (ص ٢٥٠) :

« بلدة قدرها خطير . وذكرها في كل زمان يطير . خطأ بها من ملوك كثير . ومعلمها من النفوس اثير . فكم هاجت من كفاح . وسلت عليها من يضر الصفاح . لها قلعة شهيرة الامتاع . بائنة الارتفاع . ممدومة الشبه والنظير في القلاع . تترزت حصانة ان ترام او تسطاع . قاعدة كبيرة . ومائدة من الارض مستديرة . . . »

الى آخر ما هناك من الكلام المسجع (اطلب نخب الملح ٣ : ٩٠) الذي ليس تحته كبير امر . ومثله في وصف بساتين دمشق (ص ٢٦٠) :

« ظل ظليل . وماء سلسيل . تنساب مذابه انسياب الارقام بكل سيل . ورياض ينجي النفس نسيمها العليل . تتبرج لناظرها بمجنى صقيل . وتناديهم هلموا الى معرس الحسن ومقبل . قد شمت ارضها كثرة الماء . حتى اشتاقت الى الظاء . فكاد تناديك الصم الصلاب . اركض برجلك هذا مفنسل بارد وشراب . قد احدثت البساتين بها احداق الحالة بالقمر واكتنفها اكتناف الكامة للزهر . . . »

ومما يستجبه القارى في مطالعة رحلة ابن جبير كما في اخبار الاسفار عموماً ان كاتبها يشير الى خواطر نفسه ويترجم عن احواله الشخصية وشواعره لدى معاينته الآثار والبلاد فمثال ذلك انه اذا رأى بلدًا في الشام تذكر نظيره في الاندلس وقاس ذلك بهذا لما يجد فيها من الشبه . كما فعل بحمص التي ذكرته اشيلية . قال (٢٥٨) :

« ومجد في هذه البلدة عند اطلالك عليها من بُعد في بسطها ومنظرها وهبة موضوعها بعض شبه بمدينة اشيلية من بلاد الاندلس يقع للحين في نفسك خيال وجدا الاسم سميت في القدم وهي العلة التي اوجبت نزول الاعراب اهل حمص فيها حسبما يذكر وهذا التشبيه وان لم يكن بذاته فانه لمحة من احدى جهات »

وله قول كهذا في قنسرين وهو يعارضها بجيان الاندلس (ص ٢٥٤) :

« وتشبهها من البلاد الاندلسية جيان ولذلك يذكر ان اهل قنسرين عند اسفتاح الاندلس نزولوا جيان تأنساً بشبه الوطن وتعللاً به مثل ما فعل في اكثر بلادها حسب ما هو معروف (١) »

هذا وإن في انشاء ابن جبير تعابير والفاظ تفرّد بها تُشعر بأصله المغربي . وفي النصوص التي ثبتها عنه دليل على ذلك

ومهما كان الامر من محاسن ابن جبير وقائمه فأنّه لمقرّر أنّ هذا الكاتب احد ارباب القلم يعتبره المستشرقون اعتباراً عظيماً . قال العلامة رورخت في كتابه المعنون مكتبة جغرافي فلسطين (١) : « انّ رحلة ابن جبير غاية في الخطر لمعرفة بلاد الشام » . وقد ادرجت جمعة الكتابات والفنون في باريس قسماً كبيراً من هذه الرحلة في مجموع مؤرخي الحروب الصليبية الشرقيين (٢) لما أودع الكتاب من الفوائد التاريخية عن الامور الجارية في زمانه . وقال الاستاذ سكيارتي في مقدّمة ترجمة ابن جبير انه « اذا قوبل بينه وبين غيره من رحّالي العرب كالمقدسي وابن بطوطة وغيرهما لا يوجد ابن جبير دون احد منهم في شيء من حيث الضبط والدقّة وحسن الاسلوب وخطر الامور المدوّنة » هذا ما قاله سكيارتي وحكمه صواب وان كنّا نرى انّ المقدسي اعلى طبقة من ابن جبير . لكننا نقدر ايضاً ابن جبير قدره كما اقرّ بفضل ابن بطوطة وغيره ممّن استشهدوا به ونقلوا عنه

وتما افادنا ابن جبير تعريفه لاحوال اهل الشام ووصفه لعاداتهم كما لحظها في تجوّلهم بينهم فدوّن ملحوظاته فيها وبما انه كان غريباً تجده يتسع في بيان امور لا ينصرف اليه نظر اهلها ولولاه لجهلناها تماماً . فمن ذلك عدّة اشياء ذكرها في دمشق قد اخنى عليها الزمان منذ زمن طويل كالبنكّام الذي رآه هناك (ص ٢٦٩-٢٧٠) وكقبة النسر التي وصف خصائصها (ص ٢٩٣) واستغرب حجارته فقال :

« وفي الجدار حجارة كل واحد منها يزن قناطير مقنطرة ولا تنقلها القبلة فضلاً عن غيرها فالعجب كلّ العجب من تطلعها الى ذلك الموضع المفرط السموّ وكيف تمكّنت القدرة البشرية فسبحان من ألهم عباده الى هذه الصنائع العجيبة ومعينهم على التأمّل لما ليس موجوداً في طبائعهم البشرية ومظهر آياته على يد من يشاء »

(١) اطلب Roehricht: *Bibliotheca Geogr. Palæstinae*, p. 42

(٢) اطلب Historiens des Croisades, III, 442-456

فليت شعري ما عساهُ كان قال ابن جبير لو رأى حجارة بعلبك او عين
هيكلكها العجيب ألا ان مسيره لم يؤدِّ به الى تلك المدينة (١)

٢

سورية وابن جبير

رأيت في الفصل السابق الطريقة التي توخاها ابن جبير في تسطير رحلته وما ضمَّنها
من الفوائد . فبقي علينا ان نرافقه في سياحته في بلاد الشام فنلتقط بصحبته بعض
المعلومات عن سورية في مختتم القرن الثاني عشر ولا غرو فان دليلنا فكهُ النفس متوقِّد
الذهن فيبهج رفقته ويفيدهم معاً

بعد ان اجتاز ابن جبير بلاد الجزيرة قطع الفرات فكان اول ما لقيه في وجهه
من بلاد الشام منبج . فاحس السائح بجواد قلبه يُركض فاسترسل في وصفها بالسجع
كألوف عادة (ص ٢٤٨) ولم يذكر من خواصها إلا النذر القليل ممَّا لا يُشفي به
الليل ولا يُروى الغليل . ثم سار من منبج الى حلب فوصفها وصفاً طويلاً رويلاً شيئاً
من الفاظه المبهرجة . وألحق هذا الوصف باشتقاق اسم حلب فقال (ص ٢٥١) :

« كانت قديماً في الزمان الاول ربوة يأوي اليها ابراهيم الخليل بفُنيَمات له فيحلبها هنالك
وينصدّق بلبنها فلذلك سُميت حلب والله اعلم »

وهذا الاشتقاق في الغرابة بمكان ذكره ياقوت في معجم البلدان (٢ : ٣٠٤)
مرتاباً في صحته وقد زاد عليه ابن بطوطة ما هو اغرب فجعل بدلاً من الغنم بقرة
شهباء قال : فكان اذا حلبها ابراهيم قيل « حلب ابراهيم الشهباء » . وليس في كل هذه
الاشتقاقات كما ترى ذرة من الصحة وانما هي مشابهات لفظية لا طائل تحتها . ومثلها
اشارة ابن جبير الى اشتقاق اسم حماة من حَمَى يحمي (ص ٢٥٥)

(١) ذكر ابن جبير بعلبك (ص ٢٥٨) مرة واحدة دون وصفها وألحق بذكرها قوله
« اعادها الله » كأنه ظن انها في ايدي العدو . وهو ومُّ ظاهر لان بعلبك لم تحصل قط في حوزة
الفرنج